غابت العناية



مـرت الأيـام القليلـة الماضيـة مثقلة حزينة متشحة بألوان الحداد على فقد رائد من رواد الثقافة والإعـلام. إذ ترك الفقيد مسـاحة شاسـعة في قلب كل من عرفه أو تعلـم على يديـه، ولا نملك إلا التسـليم بقضاء الله وقدره رغم الخسـارة الفادحة التـي منيت بهـا كل أوسـاط المعرفة في المجتمع العربي السـعودي، وسلوانا في فقـده أنـه توفي شـهيدًا، نسـأل الله أن يتغمد عميـد المذيعين وعميد الأكاديميين الدكتـور عبـد الرحمـن الشـبيلي بواسـع رحمته.

اقتنيـت أخيـرًا أحـد كتبـه الثريـة كمًا ونوعًـا؛ كمـا عهدناه رحمه الله في سـائر مؤلفاته، وكان أبرز ما لفت نظري في هذا الكتاب هو وصف المؤلف نفسه على غلاف الكتـاب، فلم يكتب تأليف إو إعداد أو جمع أو تصنيـف أو غير ذلك مـن المصطلحات الدارجـة، وإنمـا كتـب عنايـة عبدالرحمن الشبيلي (لن أذكر عنوان الكتاب طمعًا في أن يستعرض القارئ الكريم أكبر مجموعة من مؤلفات المرحوم بحثًا عن ضالته).

لعـل هـذا الوصـف أبلغ مـا يمكن أن يوصف بـه الأديب الراحل، فقد كان رحمه الله مثالاً ورمزًا للعناية في كل جوانب حياته وفي كافة مراحلها؛ فكان يولي كل مهمة يتولاهـا هذه العناية، ويكرم ويشـمل كل مـن عرفه أيضًا بهذه العنايـة، التي لا تفتأ تأتي مقترنـة بأجمل صفات النبل والوفاء والإخـلاص ومجموعة من القيـم النبيلة؛ تأتيـك فـي باقة شـاملة مغلفـة بخالص الود وجليل الاحترام ووافر التقدير وشديد الاهتمام (والعناية) التي أسبغها الدكتور الشبيلي على كل من عرفه عن قرب.

لـن أتطرق إلى مدى ومـدة معرفتي به رحمـه الله، ولا إلى المواقـف العديدة التي شـملني فيها بلفتاته الأبوية الحانية؛ فما كتبـه محبوه فـي شـمائله وأخلاقه غيض مـن فيض يمـلأ المجلدات، ومـا تركه من إرث فـي الأدب والإعـلام واللغـة والتاريخ وغيرها من علوم الحياة الإنسـانية سيملأ حيـاة الباحثيـن والدارسـين والأسـاتذة جميعًا، لكنني سـأتطرق بالقـارئ الكريم إلـى موقفيـن له يرحمـه الله؛ يعكسـان بعض جوانب شـخصيته الفريدة.

كان والـدي يرحمـه الله مسـاهمًا في مؤسسـة الجزيـرة للصحافـة، ورغب في ذلك الوقت -امتثالاً لتحديث طرأ في نظام المؤسسات الصحفية لم يكن قد صدر بعد وهو حظـر الجمع بين ملكية مؤسسـتين صحفيتين فـي آن واحـد- أن يبيع حصته في مؤسسـة الجزيـرة ويحتفـظ بحصته فـي مؤسسـة اليمامـة، وكان أن أبدى د. عبدالرحمـن رحمه الله رغبته في الشـراء، ولأن طبيعة علاقـة د. عبدالرحمن بوالدي رحمهمـا الله كانـت أخـوة خالصـة؛ فقد حضر الدكتـور إلى منزلنا لتسـليم المبلغ، إلا أنـه فوجيء بانقطاع التيـار الكهربائي، وبالتالي لم يتمكن مـن قرع جرس الباب؛ الأمـر الذي عالجه رحمـه الله بالطرق بيده على بـاب المنزل الخارجي لمـدة تزيد عن نصف ساعة، حرصًا منه على تسليم المبلغ في موعده، وكان المبلغ يشـمل عددًا من الشـيكات الصـادرة مـن أكثر من مشـترٍ اشـتركوا مع الفقيد في الشـراء، فجسّـد رحمـه الله أشـمل معانـي (العنايـة) في الحرص والأمانة والصبر والأخوة والإصرار على تسليم والدي ثمن المبيع يوم تسلمه من المشـترين الآخريـن؛ تأكيدًا لانتظامه وتنظيمـه و(عنايتـه) بوضـع الأمـور فـي نصابهـا وأداء الحقوق فـي وقتها؛ فرغم أن يومها كان أربعاء وعطلة نهاية أسبوع الخميس والجمعة ولا عمل في المصارف فيهما، ورغم أنه كان بإمكانه ترك المكان والعـودة فـي اليـوم التالي، إلا أن سـمو أخلاقه ومهنيته وحرصه (وعنايته) منعته من الأخذ بالخيار البديهي والأفضل له في الاستفادة من وقته.

الموقـف الثاني كان بعد سـنوات من وفاة والدي رحمه الله؛ فقد اقترح عدد من أصدقائه أن أقوم بجمع مقالاته وإصدارها في كتاب يتيحها لقرائه ومحبيه، وتوجهت للدكتور رحمه الله لاستشـارته في العمل المقترح؛ فأشرق وجهه بالرضا والبهجة؛ ليـس فقـط بعمـل جديـد سـيضاف إلى النتـاج الأدبـي المحلـي وإنمـا -طبقًـا لوصفـه- باهتمـام الأبنـاء بنشـر أعمال الآباء وتخليـد ذكراهم. وأكرمني رحمه الله بالعديد مـن النصائح حول جمع المقالات وكيفية البحث والتأكد من شموليته لكافة المقالات وكافة الصحـف والمجلات التي نشرت مقالات الوالد.

لن تتسـع المسـاحات المتاحة سواء صفحات ورقية أو إلكترونية لبث ما تحمله القلوب من أسى لفقد أبي طلال رحمه الله، لكنني سـقت الموقفين اللذيـن ذكرتهما لمشـاركة القارئ الكريم إحساسًا بحجم الخسـارة التي منيت بها شخصيًا، ومنيت بها أوساط المعارف والثقافة في المملكة العربية السعودية والعالم العربي، نسأل الله أن يرحـم أبـا طـلال وأن يرحـم نجله طـلال وأن يسـكنهما فسـيح جناته وأن يلهـم السـيدة الفاضلة حرمـه وكريمتيه وأحفـاده الصبـر والسـلوان، وأن يجعل أعمالـه وعلمـه صدقـة جارية فـي ميزان أعماله.

وقفة أخيرة: هي وقفة شكر للقائمين على تحريـر هذه الصحيفـة المتألقة وفي مقدمتهـم أسـتاذنا خالـد المالـك على تكريمي ببث هذه المشاعر على صفحاتها، وتشـريفي بـأن تكـون أول مقالـة فـي صحيفتهـم هـي رثـاء لقامة مـن قامات الإعـلام والأدب فـي المملكـة، خاصـة أنه تولى قيادة هذا الكيان الصحفي الشـامخ لسنوات عديدة رئيسًا لمجلس الإدارة.

طارق القرعاوي